

تاريخ القرآن

(11) ما برحت حياة النبي محمد صلى الله عليه واله وسلم موضع عناية الدارسين من أبعاد مختلفة، وبقدر ما عبء للموضوع من أهبة واستعداد، ومنهجية في أغلب الأحيان، فما تزال هناك بقية للبحث، فقد تنقصنا كثير من الوثائق عن حياته الروحية قبل البعثة، وصلتها بحياته العامة والخاصة بعد البعثة. هناك شذرات متناثرة في كتب السيرة والتاريخ والآثار، تتعلق بحياة النبي صلى الله عليه واله وسلم هامشيا، تتخذ مجال الثناء والأطراء حيناً، وتتسم بطابع الحب والتقديس حيناً آخر، وهي مظاهر لا تزيد من منزلة النبي صلى الله عليه واله وسلم الذاتية، ولا تكشف عن مكنونات مثله العليا، ذلك باستثناء الإجماع على عزلته في عبادته وتحننه، والافتناع بصدقه وأمانته، وهي شذرات غير غريبة في أصالة النبي صلى الله عليه واله وسلم الكريمة، وتقويمه الخلقي الرصين. وتطالعنا - أحيانا - أحداث في تاريخ النبي صلى الله عليه واله وسلم قبل البعثة، لها مداليل من وثاقة، ورجاحة من عقل، كالمشاركة الفاعلة في حلف الفضول، وتميزه بالدفاع عن ذوي الحقوق المهتزمة، وكاللفتة البارعة في رفع الحجر الأسود، ووضعه بموضعه من الكعبة اليوم، بما أطفأ به نائرة، وأحمد فتنة. وهناك انفراده عن شباب عصره بالحشمة والاتزان، وهو في شرح الصبا وعنقوان العمر، والتأكيد على الخلوة الروحية بين جبال مكة وشعابها، وفي غار حراء بخاصة، والحديث عن تجواله في سفرتين تجاريتين، لا يفصح كثيرا عن ثمرة تجربتهما النفسية، ولا يعرف مدى مشاهداتهما روحيا واجتماعيا.